تشريح جثة فرعون

كانت الجثة الموضوعة أمام الأستاذ (دوجلاس ديري) يوم 11 تشرين الثاني عام 1925 قد مضى عليها حوالي ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة. زاد التوتر في معهد التشريح في جامعة القاهرة حالما اقترب عقربا الساعة من التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً عند توجه ديري وهوارد كارتر إلى الجثة المغطاة بالبياض والموضوعة على طاولة التشريح فقد كان تحت الملاءات البيضاء جثة (توت عنخ أمون) كتب كارتر يقول:

(بدأ فحص المومياء الملكية في الساعة التاسعة وخمسٍ وأربعين يوم 11 تشرين الثاني وقد حضر العملية صاحب المعالي صالح عنان باشا وكيل وزارة الأشغال العامة وصاحب المعالي فؤاد بك الخولي حاكم إقليم قنا والمسيو بيير لاكو المدير العام لدائرة الآثار والدكتور ديري أستاذ التشريح في كلية الطب في الجامعة المصرية والدكتور صالح بك حمدي مدير الصحة العامة في الإسكندرية والسيد أ. لوكاس الكيماوي في دائرة الآثار والسيد هاري بورتون المندوب عن متحف العاصمة للفنون في نيوريوك وتوفيق أفندي بولس المفتش العام لدائرة الآثار العامة في مصر العليا ومحمد شعبان أفندي مساعد الأمين العام لمتحف القاهرة.

ولقد سبَّب هذا التشريح ضجة عظيمة وشديدة لأنه لم يحدث أبداً أن شرحت جثة قديمة جداً خصوصاً لفرعون حتى ذلك الوقت وقد كانت تنتاب دوجلاس ديري

الشكوك حول إنجاز التشريح إذ ربما كان خائفاً وقد كتب في مذكراته وتبدو في كلامه نغمة الاعتذار الرقيق:

«يمكنني أن أقول كلمة هنا حول الدفاع عن عملية كشف جسم توت عنخ أمون وفحْصِها فهنالك كثير من الأشخاص يعتبرون أن مثل هذا الفحص لا يخلو من طبيعة تدنيس للمقدسات وأنه كان من الواجب أن يترك الفرعون في مثواه الأخير دون أي إزعاج. ولكن إذا اعتبرنا السرقات المتكررة للقبور فيجب أن لا يغيب عن بالنا أنه عندما تحدث مثل هذه الاكتشافات فإنه إذا تركت أي أشياء ذات شأن في القبر فإنها تكون دعوة صريحة للصوص وإنَّ معرفة الناس أن هنالك أشياء ذات قيمة مخبوءة تحت الأرض لمسافة بضعة أقدام، سوف تكون حافزاً لمحاولات كثيرة للحصول على هذه الأشياء، بينما نجد أن استخدام الحراسة القوية يمكن أن يكفي ولكن لمدة من الزمن لمنع هذه المحاولات إلا أنه عند حدوث أي إهمال في اليقظة فذلك يؤدي إلى استغلاله في الحال».

نقلت مومياء توت عنخ أمون بشكل طارئ إلى القاهرة لغاية التشريح كما نقلت جميع مومياءات الفراعنة ولكنه دفن ثانية في ناووسه في وادي الملوك وهو راقد قرب الأقصر حتى اليوم.

ويكمل كارتر روايته بقوله:

عندما أزيلت الزينات الخارجية والأغطية المزركشة بالذهب ظهرت مومياء الملك عارية وعليها الأغطية الخارجية البسيطة والقناع الذهبي.

وكانت الأغطية الأخرى تتألف من غطاء كتاني كبير مثبت في موضعه بواسطة ثلاث شرائط مصنوعة من نفس المادة (أي الكتان) بشكل طولاني واحدة في الوسط واثنتان في كل جانب وأربع شرائط عرضانية من نفس المادة وهي تتراوح في عرضها بين 5 . 2 و5 . 3 إنشات موضوعة فوق بعضها بشكل مضاعف وكان الشريط الأوسط يبدأ من منتصف البطن (وإذا توخينا الدقة نقول من أسفل الزور) وكان يمر تحت الشرائط العرضانية ويمتد فوق القدمين ثم تحت الأخمص وينعطف راجعاً تحت الطبقة

السفلي للشرائط العرضانية وكانت المومياء تضطجع على زاوية طفيفة وهذا يوحي بأنها تعرضت لصدمة ما، عندما أنزلت إلى الناووس وهنالك دلائل على أن بعض المراهم قد صبت فوق المومياء والتابوت قبل إنزالها إلى الناووس وكان السائل يستقر في مستويات مختلفة على الجانبين مما يوحي بميلان التابوت.

ونتيجة للحالة الرثة المتضخمة للأغلفة الكتانية المحيطة بالجسم فقد طلي جميع السطح الظاهر بشمع البارافين الذائب في درجة حرارة كافية لعمل غلاف رقيق على السطح وعندما تجمد البارافين مع اختراق طفيف للأغلفة الباليه تحته وأصبح بارداً حز الدكتور ديري شقاً طولانياً في أسفل وسط الربائط الخارجية إلى العمق الذي اخترقه زيت البارافين وهكذا استطاع أن يزيل الطبقة القاسية بكتل كبيرة ومع ذلك فلم تنته متاعبنا هنا إذ كانت الربائط واللفائف الكبيرة الملتفة قد أصبحت في حالة سيئة من التفحم والتلف وقد كنا نأمل عندما أزلنا طبقة رقيقة خارجية من أربطة المومياء بأن نحررها من النقاط التي تلتصق بها بالتابوت حتى يصبح من الممكن إزالتها بالتدريج ولكن خاب أملنا أيضاً في هذه المرة فقد اتضح أن الكتّانَ تحت الجثة والجسم نفسه كان مشبعاً بالمراهم التي كونت كتلة تشبه الزفت في اسفل التابوت بحيث التصقت تلك الكتلة بالتابوت وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه وأصبح من المستحيل دفعها إلا بالمخاطرة بإحداث ضرر جسيم وحتى بعد أن أزيل القسم الأعظم من الربائط بحرص كان من الضروري نزع المواد القاسية بواسطة الإزميل من بين أعضاء الجسم والجذع قبل أن يصبح بالإمكان رفع بقايا الملك.

وكانت المجوهرات وعددها (143) قطعة بمجموعها قد وضعت كل واحدة في وسادة كتانية صغيرة حتى لا تشوه الشكل الخارجي للمومياء وقد ظهرت المجوهرات بين طيات الربائط حالما حلت هذه، وكلما اقتربت الربائط الكتانية من الجسم كلما ظهر فسادها وانحلالها وكان باستطاعة أي إنسان أن يرى بوضوح أن جذع المومياء كان ملفوفاً بشكل تصالبي عرضاني فقد كان الذراعان والرجلان وعضو التناسل

ملفوفة كل منها لوحدها أولاً وبعد ذلك تشد وتلتحق ببقية الأربطة العامة الرئيسية في الجسم. وكانت اليد اليمنى موضوعة على الورك الأيسر واليد اليسرى على أضلاع الصدر اليمنى بشكل تتصالب به اليدان وأما أصابع الرجلين فكانت ملفوفة بالقماش وعلى كل منها غلاف من الذهب مشدود عليها. ويحيط بالرأس قطع مستطيلة ومستقيمة من الكتان وتحتها وجدت وسائد تاج يشبه تاج أوزريس أو تاج (أنتيف) ومن المعتقد أن الوسائد صممت لحماية وجه عنخ أمون من القناع الذهبي الموضوع فوقه وهنالك على وسادته تميمة بشكل نصف دائرة ولها عنق يظن بأنها تمثل دعامة أو سناداً للرقبة وهذه التميمة تستحق اهتماماً خاصاً لسببين: أولاً لأنها مصنوعة من الحديد وهو مادة لم توجد في أي مكان آخر في القبر. وثانياً: هنالك معنى رمزي من وجود الحديد وهذا ما يفسره الفصل (166) من كتاب الأموات:

«استيقظ من سباتك الذي أنت فيه، إنك سوف تنتصر على كل شيء يعمل ضدك، إن الإله سوف يتغلب على أعدائك فهم قد قضي عليهم ولم يعودوا موجودين قطعياً.».

ولقد سببت هذه التعويذة الحيرة لعلماء الأشعة وإنَّ النظرية التي تقول بأن الإشعاع له علاقة بلعنة الفراعنة القاتلة هذه النظرية سوف نناقشها في الفصل الحادي عشر القادم.

ولكن من المذهل أن نلاحظ هنا أن ما يمكن أن يفسر بحكم الإعدام المذكور في كتاب الموتى هذا الحكم قد تحقق بالنسبة لاثنين من العلماء حضرا عملية تشريح جثة الفرعون.

وجدت إحدى وعشرون تميمة «تعويذة» أخرى حول رقبة توت عنخ أمون ولكن من السهل أن نتكهَّن عن معنى هذه التعاويذ ودلالتها فإن عملها يتعلق بشكل أساسي بعملية الدفن وكانت عبارة عن وسائل تقنية لا تقل عن عمليات الزينة وحالما أزيلت قطع الكتان المستطيلة ظهر رمز (إيزيس) ورمزان ذهبيان من رموز (أوزيريس) وصولجان من الفلسبار الأخضر وبعدها ظهرت ثلاثة أقراط ذهبية

بشكل ورقة النخيل أو ثعبان ثم ظهر تمثال لإله الحكمة والسحر من الفلسبار الأخضر ثم رأس حيَّة من العقيق الأحمر ثم قرط يمثل الإله (حورس) من اللازورد الأزرق ثم تمثال لا نوبيس من الفلسبار وصولجان من نفس المادة. أما التمائم (التعاويذ) على الملاءة السفلية فكانت تشمل ثعباناً مجنّحاً له رؤوس بشرية وثعباناً ملكيّاً مزدوجاً وخمسة عقبان.

وهذه التمائم حول رقبة الفرعون الميت كان لها غرض واحد فقط وذلك بأن تحميه في رحلته إلى عالَمِ الأموات وكان للشعب ثقة عظيمة بهذه التمائم والتعاويذ وكان الإشكال الوحيد هو فيما إذا كان الكهنة (وهم الذين يمثلون الطبقة العليا المثقفة في مصر) يؤمنون بالقوى السحرية الخارقة لهذه التمائم يا ترى؟ أو إذا كانوا يعرفون عجز هذه التمائم في مثل هذه القضايا فهل كانوا يستعملون اكتشافات علمية لدعم قوة هذه التمائم؟.

وفي سبيل هذا الغرض وهو القوة الخارقة فليس من الضروري أن يوفر الإنسان نظرية علمية كنظرية الإشعاع أو الفيروسات فالمهم هو التأثير فقط وهنالك مثل غريب على هذا. وهو أنه كانت هنالك أكياس صغيرة من الرمل تباع في وادي (جوشيم) في بوهيميا كعلاج ضد الصداع والروماتزم، وذلك قبل وقت طويل من اكتشاف العلاج بالإشعاع وقد كان الأطباء يهزؤون من ذلك الهراء السحري المكتنف بالأسرار والغموض ولكن المرضى كانوا يدعون بأن تلك الأكياس الصغيرة كانت تساعدهم كثيراً فمن كان على صواب يا ترى؟ إن الجواب مثير ومذهل حقاً، فقد كان الصواب بالتأكيد ليس بجانب الأطباء فالرمل هذا كان يحتوي تراباً فيه عنصر الراديوم وفيه خليط من اليورانيوم والقار وهكذا كانت تلك الأكياس تطلق إشعاعاً بسيطاً والرادويوم يحل حمض البولة ويحوله إلى حمض الهايدركلوريك والأمونياك وهكذا فقد كان ذلك الكيس الرملي البسيط يعمل على إحداث تفاعلات فيسولوجية مع أنه كان يبدو أن ذلك مستحيل علمياً نظراً لأن المنهجية العلمية لم تكن قد اكتشفتْ بعد.

ولا نقصد بهذا القول أن نستسيغ الخرافات أو السحر بل على العكس نقصد أن نرتاد أساليب نستطيع من خلالها تفسير القضايا الغامضة التي يستعصي على العقل تفسيرها وفهمها.

والحقيقة أن اليونانيين جمعوا بين الأساليب الغامضة في التداوي وبين الإيمان المصري بالخوارق في علومهم. فبالرغْمِ عن بعض الملاحظات النقدية للظواهر الطبيعية والبحث التحليلي لبعض الرجال مثل هيبو كراتيس إلا أن فكرة الشياطين المرضية التي أتت من مصر لعبت دوراً لا بأس به في آفاق الفكر اليوناني وهذا دليل على عظمة تأثير الثقافة المصرية في الشعوب الأخرى حتى بعد انحطاط الثقافة المصرية وكذلك نجد أن الطقوس الغامضة التي استعملتها الكهانة المصرية لم تمنع الكهنة من استعمال الاكتشافات العظيمة في العلوم الطبيعية تلك الاكتشافات التي سرعان ما نسيت تواً بعد معرفتها ولم تظهر إلا بعد أن استخرجت من بين أنقاض الزمن وبعد أن طغى عليها النسيان تلك الاكتشافات التي ربما كانت مدفونة في زوايا النسيان عبر القرون والعصور.

ما هو حرف /ت/ ؟

ظهرت إحدى وعشرون تعويذة (تميمة) وكان الدكتور (ديري) لا يزال يفك الربائط على الذارعين والساقين قبل أن يبدأ العمل في البقية وهنا ننقل ما قاله (كارتر) في دراسته لاكتشاف القبر والتي ظهرت في ثلاثة مجلدات؟

«وجدنا كلا الساعدين مكسوين بكثافة من المرفق حتى المعصم بالأساور الذهبية الرائعة سبعة على الساعد الأيمن وستة على الساعد الأيسر وهي تتألف من العقيق الأحمر وظهر من حجم هذه الأساور أنها كانت تطوق ذراعاً صغيرة جداً، ولم يدل أي واحد منها على أنه خصص للدفن مع الميت بل كانت تبدو جميعاً وكأنها أدوات شخصية تُلبَس خلال الحياة وكان كل إصبع وكل إبهام ملفوفاً بقطع من الكتان الناعم ومغلّفاً بغلاف ذهبي وعلى كل من الإصبع الثاني والثالث لليد اليسرى خاتم

ذهبي وهنا نصل إلى الأحشاء حيث وزعت عشرة أشياء وكأنها بشكل طبقات ففي الجانب الأيسر للربائط الخارجية القليلة كان هنالك تميمة بشكل Y مؤلفة من صفيحة ذهبية ثمينة ومعها صفيحة بيضوية ذهبية أيضاً وهما موضوعتان فوق بعضهما رأساً وإنَّ دلالة هذه التميمة بشكل Y ليس واضحاً فهنالك جسم مشابه مصور على توابيت المملكة المتوسطة يحمل كلمة تبدو أنَّها تعطي معنى (العصا) ولكن ربما أن الرمز يشكل قسماً من الكلمة الهيروغليفية بمعنى (الكتان) أو (الملابس) ولهذا فمن المحتمل أن تشير هذه الكلمة إلى الأربطة أو ربائط المومياء ولا تختلف عن هذه الكلمة المعاني التي ترمز إليها الصحيفة المعدنية البيضوية التي وجدت معها فقد كان المقصود منها تغطية الفجوة في جانب المومياء اليسرى التي كان المحنطون قد نزعوا منها الأحشاء الداخلية لحفظها وحدَها والشيء التالي الذي يلي هذه هو رمز بشكل (T) وهو مصنوع من صحيفة ذهبية تشبه رقعة الرسام كانت موضوعة على الرباط فوق الجانب الأيسر من البطن وامتدت حتى الجزء العلوي من الفخذ الأيسر وحسب معرفة المؤلف ليس لها مثيل ولا يعرف معناها تماماً.

وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت أشياء نموذجيَّة للزينة مثلاً ثماني حلقات ذهبية حول البطن والفخذ والعضد. ثم وجدت طبقات من الربائط البالية تماماً وأيضاً ظهر حزام ذهبي مرصع بالجواهر وتحت الحزام ثبت بشكل مائل أظرف خنجر وأجمله رأته عين بشرية فقد كان مقبض ذلك الخنجر مزخرفاً بالذهب الأصفر الحبيبي وكانت شفرته من الذهب المقسى وبعد ذلك رفع الأستاذ (ديري) آخر الربائط وقد كان كل من حوله يراقب ما يفعله باهتمام وبأعصاب متوترة. يقول ديري: «كان جلد الرجلين شأن بقية الجسم ذا لونٍ أبيض رمادي وكان هشاً وتظهر عليه تشققات متعددة وبعد فحص قطعة منه وجد أنها لا تحتوي على الجلد فحسب بل على جميع الأجزاء اللينة حتى العظم الذي كان يظهر عاريا بعد نزع تلك القطعة عنه ولم يزد سمك الجلد والأنسجة تحته في هذه الحالة على ميليمترين أو ثلاثة ميليمترات».

ثم يتابع ديري وصف الأطراف.

«ظهرت الأطراف منكمشة وهزيلة ولكن حتى لو سمحنا بإسقاط مناسب لانكماش الأنسجة وظهور النحول والهزال الذي أنتجه هذا الانكماش فلا يزال من الواضح أن توت عنخ أمون كان ذا بنية ضئيلة وربما لم يكن قد تم نمو جسمه عند موته. وعند القياس وجد أن طوله كان خمسة أقدام و 4 1/2 إنش ولكن طبقاً لتقديرات الأستاذ (كارل برسون) وجد أن قامته كانت 1.676 متر أي 5 أقدام و 6 إنشات وهذا رقم قريب جداً من الحقيقة.

لقد تعرف ديري على الحقيقة وهي أن توت عنخ أمون مات وهو صغير السن وذلك عندما كشف القسم السفلي من عظم الفخذ فوجد أن العظم التام الضخم كان منفصلاً عن الساق ويتحرك بحرية (والعظم التام الضخم هذا هو جزء من العظام التي تتحجر وتتحول إلى عظم بشكل منفصل أي قبل العظام الأخرى وقبل أن يلتحم بالقسم الرئيسي) وفي عظام الأطراف يؤلف العظم التام الضخم الجزء الرئيسي في الأطراف العلوية والسفلية وفي سن الطفولة تكون هذه العظام متصلة بالعظام الأخرى بواسطة غضاريف تتحول إلى عظام صلبة أخيراً ويتوقف النمو.

وبكلمة أخرى يمكننا أن نعتبر حالة الغضاريف والتحامها مقياساً للسن. فعظم الفخذ السفلي يلتحم بالساق عادة في حوالي سن العشرين أما في النهاية العليا لعظم الفخذ فإن البروز المعروف بالرضفة الكبرى (هي نتوء في الجزء العلوي من عظم الفخذ) كان ملتحماً بالعظمة الرئيسية ولكن في الجانب الداخلي كان من السهل رؤية فجوة صغيرة تظهر سطوح الغضاريف الناعمة حيث لا يزال الالتحام غير تام وهذا العظم الكبير يلتحم في حوالي سن الثامنة عشرة وهكذا وطبقاً لما ظهر من عظام الأرجل فان توت عنخ أمون كان سنُّه فوق الثامنة عشرة ولكن أقل من العشرين عند وفاته وأما تشريح الذراع فقد تم بعناية لا تقل عن العناية التي بذلت في تشريح الرجل وأظهرت نفس النتائج التشريحية، فالجلد يميل إلى اللون الرمادي، والتحامات غضروفية. فقد كتب ديري في تقريره عن تشريح الجثة:

كانت رؤوس العضد التي تلتحم في حوالي سن العشرين لا تزال غير ملتحِمَة ولكن النهايات السفلية كانت ملتحمة. وإن نهايات عظمي الكعبرة والزند في المصريين الأحياء تظهر التحاماً قليلاً أو حتى عدم التحام في معظم الأحوال حتى سن الثامنة عشرة وبعد هذا السن تبدأ بالالتحام بسرعة تقريباً. ويبدأ الالتحام الداخلي بعظم الزند ويتقدم بشكل عرضاني (جانبي) وبالتدريج يغلف الكعبرة وفي حالة توت عنخ أمون ظهر أن الالتحام بدا في عظم الزند ولكن الطرف الأقصى للكعبرة ظهر أنه غير ملتحم وكان يتحرك بحرية فمن وضع العظام الكبيرة هنا ظهر أن الملك كان في الثامنة عشرة عندما توفي فلم تكن أي عظمة كبيرة من التي يجب أن تلتحم في العشرين من العمر تظهر أي دلالة على الالتحام وهنالك دلائل تشير بأنه في مصر تميل العظام الكبيرة إلى الالتحام في زمن أبكر مما هو الحال في أوروبا.

إن علم تشريح الجثث وهو علم العظام يستطيع أن يمدنا بتفسيرات منفصلة حول السن والأمراض التي كان يصاب بها الرجال منذ قرون مضت ولكن هنالك حسابات احتياطية للأخطاء الحسية.

إن الجراح الفرنسي الشهير بول (بروكا) (1824 ـ 1880) الذي اكتشف مركز الكلام في المخ والذي سمي باسمه (بروكا) أدهش علماء التشريح المرضي في جميع أنحاء العالم عندما ادعى أن مرض (السفلس) كان موجوداً في أوروبا قبل اكتشاف أميركا. وحتى ذلك الوقت كان الاعتقاد السائد أن كرستوفر كولومبوس وبحارته هم الذين جلبوا هذا المرض إلى أوروبا عبر المحيط.

برهن بروكا على أن هذا القول لم يكن صحيحاً فقد فحص هياكل عظمية بشرية استخرجت من خرائب تأوي مرضى مصابين بالجذام كانت جماجمهم تظهر أعراض مرض (السفلس) بوضوح بهذا أظهر أن علم التشريح المرضي كان مقصراً في تخيله للموضوع.

لم يكن من أحد ليتجاسر بأن يشك بصحة ما وجده الجراح (بروكا) العظيم لو لم يظهر المؤرخ الطبي (ولهلم كرستنسين) الذي وصل إلى استنتاج مختلف كلياً عما

وصل إليه (بروكا) وكان هذا مدير متحف تاريخ الطب في كوبنهاجن منذ عام 1964 وقد فحص هياكل عظمية وجدت في جميع أنحاء أوروبا وأثبت بحثه التشريحي هذا رأيه العلمي الأصلي.

فقد ظهر السفلس لأول مرة في أوروبا حوالي عام 1500 فهل كان بروكا مخطئاً؟ لذا قرر (مولر كرستنسين) أن يراجع أعماله ولم يكن هنالك خطأ في الاستنتاجات التي كان الجراح الفرنسي قد وقع عليها فقد أظهر فحص الجماجم أعراض مرض السفلس ولكن العالم أخطأ في الاستنتاجات التي كان الجراح الفرنسي قد وقع عليها فقد أظهر فحص الجماجم أعراض مرض السفلس ولكن العالم الدانماركي خطا خطوة إلى الأمام وعمل شيئاً فشل في عمله (بروكا) فقام بمراجعة الأعمار وتدقيقها. وهذا ما سبب عمل فضيحة في علم التشريح المرضي.

إذ إنَّه عندما استخرجتْ الجماجم السفلسيَّة من خرائب بناية يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر ظهر أن الهياكل العظمية يرجع تاريخها إلى الحقبة من عام 1792 ـ 1818 وكان من الواضح أنها نقلت إلى الموقع القديم بعد أن نبشت القبور بفعل الحراثة ولاجتناب عمل ضجة واستياء بين أفراد الشعب نقلت إلى المقبرة القديمة. لقد قضى عالم التشريح (ايليوت سمث) سنوات في البحث عن الأمراض التي كانت سائدة في مصر القديمة وقد كان منسجماً مع أبحاثه لدرجة أنه نسي أن مرضاه كانوا مجرد مومياءات ففي أحد الأيام وجد راكباً سيارة أجرة وهو يحمل مومياء تحوتمس الثالث (1502 ـ 1448ق. م) وكان قد أخذها من المتحف المصري إلى عيادة طبيب حيث قرر أن يفحص الجثة تحت الأشعة السينية).

وبعد أن فحص خمسمائة جمجمة وجدت عند الكشف عن آثار الجيزة قرر (سمث) أن المصريين كانوا يقاسون من أمراض اللثة كما هو الحال عندنا وقد بحث (سمث) عن أي تشويه عظمي سفلسي في عدد لا يقل عن (25) ألف جمجمة دون أن يجد أية حالة سفلسية.

اكتشف العالم البكترولوجي الفرنسي (أرماند روفر) بعض البكتريا في بعض المومياءات التي كانت تستجيب للاختبارات الكيماوية. وكان هذا العالم يعلّم في جامعة القاهرة ويعمل كرئيس لهيئة الهلال الأحمر المصري وقد وجد أيضاً عدداً كبيراً بشكل غير عادي من البكتريا في الرئة والكبد وهذا يغاير ما وجده كيماوي في الدولة (الفرد لوكاس) وقد وجد (روفر) بيوض دودة البلهارسيا في كليتي مومياءين من الأسرة العشرين واستطاع أن يشخص حالة مرض رئة سوداء في أحد عمال المناجم من المصريين القدماء.

إن مثل هذا التشخيص الذي استخلص من أعضاء داخلية لأجسام محنطة نادرة جداً لأن الأعضاء الداخلية كانت ما تزال توضع في قوارير مقدسة وغالباً ما كانت تفقد أولا تحفظ حفظاً جيداً. وأما الأمراض الدورانية أي التي لها علاقة بدوران الدم فمن السهل تشخيصها ومعرفتها فقد مات الفرعون رعمسيس الثاني (1301 ـ 1234 ق. م) مثلاً بسبب تصلب الشرايين وهو سبب شائع لموت الكثيرين في ذلك الوقت وحتى الآن.

ومن الواضح أن الفحوص الأثرية تتطلب غالباً تعاون عدة علوم فإذا لم يجر أحد التحاليل على ما يرام فإن فرص الخطأ تزداد نسبياً وقد ثبت أن هذا القول صحيح بالنسبة لفحص مومياء توت عنخ أمون فقد كان جلد بطن توت عنخ أمون أقل تماسكاً من جلد رجليه وذراعيه فها هو الأستاذ (ديري) يقرر بعد تشريح الجثة ما يلي:

«لقد كان الجدار البطني منتفخاً من الجهة اليمنى وقد وجد أن سبب ذلك يعود إلى إدخال مواد لحفظ الجثة عبر تجويف البطن من الجانب الأيسر حيث يوجد شق التحنيط وهذه الفتحة التي لها مظهر مهلهل تبلغ في طولها 86 ميلمتر تقريباً وقد سحبت أحشاء الفرعون من خلال ذلك الشق ولم تحنط هذه الأحشاء مع الجثة ولكنها حفظت منفصلة في القبر. اعتقد المصريون القدماء أن الإله أوزيريس يزن قلب كل إنسان في يوم الدينونة ولهذا فيجب أن يحفظ القلب في قارورة خاصة. وبدلاً من

القلب كان الكهنة يضعون أحياناً جعلاناً وهذا يمثل خنفساء الروث وهي الحشرة التي اعتقد المصريون بقداستها والتي كانت أهميتها الرمزية لا تقل عن أهمية الصليب بالنسبة للمسيحيين وإنَّ الأسباب التي دعتهم لإخراج الأعضاء سوف يصيبها الفساد والتلف بسرعة وهنالك سبب آخر وهو أنهم ينظرون بعين الاعتبار للرمزية التي تمثلها هذه الأعضاء فهي المنبه والمثير للجوع والعطش ولم يكن يسمح للأموات أن يصطحبوا هذه المثيرات في رحلتهم إلى العالم السفلي وهذا هو السبب في وضع تلك الأعضاء في أربع قوارير منفصلة وكانت أغطية هذه القوارير منحوتة بشكل رؤوس أبناء الإله (حورس) الأربعة وهم امست (Amset) هابي (Habi) ودوموتيف (Daumutef) وكيبخسينوف (Kebchsenuf) وصممت بحيث تردُّ غائلةَ الجوع والعطش. وفي المملكة القديمة والمملكة المتوسطة كانت الأطعمة والشراب توضع في القبر مثل أباريق الخمر المصنوعة من الخشب والمرمر بشكل الإوزِّ المشوي فضلاً عن صور مصغرة عن أدوات المطابخ والمخابز.

ثم أصبح شعب المملكة الوسطى والحديثة يعتقد أن إزالة الأعضاء الداخلية من البطن تحسِّن درجة حفظ الجسم وتحنيطه وما أتى زمن توت عنخ أمون إلا وأصبحت أجسام الموتى تفتح وتزال منها أعضاؤها الداخلية قبل عملية التحنيط ولكن لم يكن الأمر دائماً بهذا الشكل فإن أفضل المومياءات التي وجدت في معبد أمنحوتب في (دير البحري) لم يظهر بها أي شق أو فتح في البطن وكانت ترجع في تاريخها إلى الأسرة الحادية عشرة (2050 ـ 1991ق. م) ومع ذلك نجد أن شق الجثة وإزالة محتويات البطن صار مألوفاً ابتداءً من الأسرة الثانية عشرة فصاعداً.

ظهر أنه من الصعوبة بمكان تعرية رأس توت عنخ أمون فقد كان على (ديري) أن يتقدم بالعمل بحذر لكي يتأكد من عدم تشويه الوجه الذي كان الجميع يأملون بأن يكون محفوظاً في حالة حسنة وكلما قطعت ربائط أكثر من رأس الفرعون كلما وضح شكل الرأس وهو رأس طالما لوحظ في الرسوم والتماثيل في القبر وكان توت

عنخ يملك قذالاً (ما بين الأذنين من مؤخر الرأس) تام النمو وهذا ما لاحظه علماء الآثار بالنسبة لقذال عمه أخناتون.

كتب كارتر يقول:

بعد إزالة بضع لفائف من الأربطة كشف إكليل من قماش مرصع بالجواهر يحيط برأس الفرعون تماماً وهو غاية في الجمال عصابة بسيطة حول الرأس، أما تصميمه فهو عبارة عن شريط ذهبي مزين بحلقات متماسة متصلة بعضها ببعض وهي من العقيق الأحمر وبها أزرار رقيقة من الذهب مثبتة في وسطها وفي مؤخرته قرصٌ بشكل قوس من الأزهار تدلى منه ناتئان بشكل شريطين ذهبيين مزيّنين بنفس الطريقة وعلى جانبي العصابة توجد زاوئد من نوع أعرض ولكن عليها أقراص ضخمة ملتصقة من الجوانب الأمامية ثم وجدت شارة السلطة على مصر العليا ومصر السفلى منفصلة على الفخذين الأيمن والأيسر بالتوالي ولما كان جسم الملك مسجى في الناووس من الشرق إلى الغرب بحيث إنَّ رأسه كان متجهاً إلى الغرب وهكذا فقد كان ثعبان بوتو المقدس على يساره ونسر نخيبين على يمينه. وهاتان الشارتان كانتا في وضع يمثل الشكل الجغرافي تماماً (مصر العليا ومصر السفلى) وهنالك كثير من الأقوال حول ما يرمز إليه هذا الإكليل من معانٍ فهو لم يكن بالتحديد تاج الملك الذي كان جميع الفراعنة يلبسونه ولكن كان من النوع الذي يصنع لكل فرعون على حدة فهنالك حقيقة واضحة وهي أن الإكليل كان يرمز إلى أكثر من كونه زينة فوق رأس الملك فأوراق البابيروس التي ترجع إلى عهد سحيق ولكن معلوماتها موثوقة تحتوي على تراتيل تمجد الإكليل الذي ـ كما تقول التراتيل ـ «يلمع بشكل رائع فوق جبهة إله الشمس جبهة الإله الأرضي ويجلب الخراب لأعدائه».

إن أوراق البابيروس هي أقدم وثائق مكتوبة خلفها الجنس البشري فقد استعمل المصريون هذه اللفائف منذ الألف الثالث قبل الميلاد وأقدم رسالة محفوظة حتى زمننا هذا ترجع في تاريخها إلى حوالي 2400 ق. م وفيها يتذمر جندي مصري من ملابسه العسكريَّة المهلهلة.

ولعمل لفائف البريد كانت سويقات البابيروس تقطع قطعاً مستطيلة وتثنى وتوضع بعضها فوق بعض وبعد ذلك تضغط وكانت المادة اللزجة في النبات تستعمل في إلصاق العروق والألياف وكانت الأصداف وعظام الأسماك تستعمل في صقل أوراق البردي وبعد ذلك تصبح جاهزة ليكتب عليها بأقلام القصب.

وكان المصريون يشحنون أوراق البردي إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى وإيطاليا وإسبانيا. وكان القوط الغربيون واللومبارديون والفندال يكتبون على أوراق البردي وعرفت أوراق البردي التي وجدت مع الرزم الضخمة والبالات في القبور في فترة عصر (الباروكة) وتستعمل اللبان أو البخور.

ولم يحدث إلا في عام 1788 حين أمر الكادرينال الإيطالي (ستيفانو بورجيا) بعمل فحص عملي لأوراق البردي التي جلبها له أحد الرحالة من مصر.

حدث هذا كله قبل حملة نابليون على مصر وقبل أن يصبح بحث الآثار المصرية علماً قائماً بذاته وقبل أن يحل شامبليون رموز الكتابة الهيروغليفية ولكن لحسن الحظ فإن العالم الدانماركي (نيكولاس سكو) الذي فحص أوراق البردي حسب أمر الكادرينال لم يكن هذا العالم بحاجة لفهم الكتابة الهيروغليفية وذلك لأن المخطوطة التي كانت بين يديه كانت مدونة باللغة اليونانية ويرجع تاريخها إلى عام 192ق.م وهي عبارة عن قائمة بأسماء سكان قرية الفيّوم الذين اشتركوا في بناء السدود والقنالات المقامة هناك وهذا هو أحد الأسباب التي جعل الاهتمام بالنصوص المصرية يقل تدريجياً ثم يتلاشى بسرعة.

لقد قدم جامع الآثار الروسي فلاديمير جولينشف الإكليل المصنوع من البردي إلى أودلف إيرمان ليفحصه فحصاً أولياً وكان قد اشتراه من أحد الأشخاص في روسيا وهذا بدوره قد اشتراه من مصر وكانت تلك القطعة الأثرية في حالة ممتازة ومن المحتمل أنها قد دارت في رحلة طويلة من تلك الرحلات التي كانت مصير كثير من الكنوز المصرية القديمة وقدرَها بعد أن استولى عليها لصوص القبور البارعون الماكرون وأخرجوها من الأعماق.

لا نعلم اسم أول مخترع للبردي ولا تاريخ هذا الاختراع ويدَّعي علماء الآثار أن ورقة البردي التي كان طولها 175 سنتيمتراً والمصنوعة من (15) قطعة منفصلة والمكتوبة على وجه واحد فقط يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر ق. م حين كتبها أحد كهنة (سبق) الذين كانوا يعبدون الإله التمساح في الفيّوم.

وقد استنتج إيرمان أن اسماً رمزيّاً يعود إلى الفرعون ويستشهد على رأيه بدليلٍ أنه لم يذكر اسم (الإله) في كامل تلك الورقة الطويلة ذات ستّةِ الأمتار مرَّة واحدة.

كان المصريون القدماء يدينون بالتبجيل والاحترام للأكاليل وهذا يجعلنا نستنتج أن للأكاليل قوى سحرية خارقة فالثعبان الذي كان يوضع على الإكليل من المفروض أن له قوة سحق الأعداء وعلى الأقل نجد هذا التكرار متواترا في عدة مصادر والسؤال المطروح هو: ما نوع هذه القوة؟ هل كان الإكليل مصدراً للنشاط الإشعاعي فإذا صح هذا فإن هذا سيكون تفسيراً للظاهرة الغريبة وهي أن كثيراً من الناس الذين تورطوا في كشف قبر توت عنخ أمون قد ماتوا في ظروف غامضة فهو الفرعون الوحيد الذي كان يرتدي الإكليل عند اكتشاف القبر.

خلال عملية تشريح الجثة عثر الدكتور (ديري) على قبعة كتانية دقيقة الصنع وعليها غرز من الذهب واللؤلؤ وكانت مناسبة ليرتديها رأس حليق الشعر وهنا يكتب هوارد كارتر:

«إن إزالة الربائط النهائية التي كانت تحمي وجه الفرعون احتاجت لأقصى درجات العناية والانتباه وذلك لأن حالة الرأس المتفحمة كانت تهدد بإحداث أعظم الأضرار بتقاطيع الوجه وقد كنا ندرك مدى الأهمية والمسؤولية الملقاة على عواتقنا وبعد لمسة فرشاة ناعمة سقطت آخر قطع بالية هشة من القماش فإذا بوجه هادئ صافٍ عليه سمات الشباب.

ويبدو أن المراهم التي صبت فوق المومياء قد أحدثت تفاعلات كيماوية وهذه بدورها أنتجت حرارة ولهذا فإن جلد الفرعون قد أصبح محترقاً وعليه بقع سوداء».

وهنا نعود إلى تقرير الدكتور ديري عن تشريح الجثة:

«كانت السداداتان اللتان تسدان فتحتي المنخرين مصنوعتين من قماش منسوج ومنقوع (بالراتنج) وكانت العينان مفتوحتين جزئياً ولم تُمسا أبداً على أي حال وكانت رموش العين طويلة جداً وقد أصبح الجزء الغضروفي من الأنف منبسطاً جزئياً بفعل ضغط الربائط وكانت الشفة العليا مرتفعة قليلاً إلى الأعلى وظهرت القواطع الوسطى وكانت الأذنان صغيرتين وحسنتي التكوين وشحمتا الأذنين مثقوبتين بثقوب قطرها حوالي 7.5 ميلمتر وجلد الوجه لونه رمادي وهو مشقق وهش وفجوة الجمجمة فارغة ما عد بعض الراتنج الذي أدخل إلى الجمجمة من خلال الأنف على طريقة التحنيط في تلك الأيام بعد أن أخرِجَ الدماغ من نفس الطريق.

ولقد ظهرت موجة من الانفعال في تلك الأيام بسبب الاعتراف بوجود إصابة في وجنة الفرعون اليسرى والغريب أن كارتر لم يذكر شيئاً عن هذه الإصابة إلا أن الدكتور ديري كتب يقول باقتضاب:

«هنالك على الوجنة اليسرى، تماماً أخدود مستدير يشبه أخاديد الحرب وحول محيط هذا الأخدود المنتفخ من طرفيه يبدو الجلد فاقداً لونه وليس من المستطاع معرفة طبيعة هذا الشق؟».

كيف مات توت عنخ أمون؟

إن اللغز حول جرح رأس توت عنخ أمون لم يحلَّ إلا بعد أربعين سنة عندما فحص الجثة أحد أساتذة التشريح في ليفربول وهو الدكتور رونالد هارسون وقد قام بالفحص بواسطة آلة للأشعة السينية يمكن نقلها من مكان لآخر ولم تكن هذه أول مرة تفحص بها جثة الفرعون ولكنها كانت المرة الأولى التي تفحص بها الجثة بشكل كامل صحيح وبعد تصوير خمسين صورة تحت الأشعة السينية أثبت التشخيص التالي:

«لقد مات توت عنخ أمون ميتة عنيفة فقد كان الجرح في الجانب الأيسر من جمجمته نتيجة لسقوط أو ضربة وكان سبب الموت الحقيقي هو جلطة دموية حدثت تحت السحايا أي (الأغشية الدماغية) وهذا هو الخبر اليقين بالنسبة لموت الفرعون المبكر والذي اختلف العلماء حوله فمنهم من اقترح أورام الدماغ أو مرض السل، والتهاب الشرايين كأسباب لهذه الوفاة».

وقد استطاع مساعد الأستاذ هاريسون وهو الدكتور (كونوللي) أن يحدد الزمرة الدموية لتوت عنخ أمون وذلك بمساعدة نسيج خلوي بقدر الدبوس وقد وجد أن زمرته الدموية A_2 ومن الزمرة الثانوية M.N وهذا يظهر أن دم توت عنخ أمون كان من الزمرة النادرة ولهذا فمن المحتمل جداً أنه قد انحدر من عائلة قديمة عريقة في الأرستقراطية.

إن زمرة الدم النادرة A2 تثير فرضية أخرى أيضاً فقد ادعى كارتر أن أكثر ما يلفت النظر بالنسبة لوجه توت عنخ أمون هو شدة شبهه بوجه عمه أي والد زوجته (أخناتون) كما ظهر من تماثيلهما وقد افترض كارتر الذي لم يكن يعلم ن توت عنخ أمون وأخناتون يحملان نفس زمرة الدم أنَّ الأول وهو توت عنخ أمون الذي لم يكن يعرف أي شيء عن أصله وقراباته كان ابناً غير شرعي لأخناتون. وذلك لأن زوجة أخناتون الشرعية لم تَلِدْ إلا بنات وتزوج فرعون المستقبل إحداهن وقد كان في الثانية عشرة عندما تزوج أخته من أبيه. مع العلم أن عمه أي أبا زوجته كان أباه أيضاً. وهكذا نجد أن هاريسون وكونوللي استطاعا أن يبرهنا في عام 1959 ما كان مجرد حدس وتخمين في عام 1925.

اشترك ألفرد الوكاس وهو الكيميائي الموظف في دائرة الآثار في الحكومة المصرية في فحص الجثة مع الدكتور ديري ولكن النتائج التي توصل إليها لا يمكن الاستفادة منها في إيجاد تفسير لقضية لعنة الفراعنة فلقد كتب مثلاً حول الفطور التي وجدت في القبر وعن تأثير هذه الفطور على الجزئيات العضوية للغشاء وعلى عظام المومياء ولكنه ادَّعى أيضاً أن القبر خالٍ من الجراثيم.

إن وجود الفطور الكثيفة على جدار القبر والعدد الكبير من الحشرات التي وجدت ميتة على الأرض لابد أن لها دلالتها لتأييد نظرية السموم والتسمم التي اقترحت في الفصل العاشر من هذا الكتاب وقد عين عالم الحشرات في الجمعية الزراعية الملكية في القاهرة وهو (أ. الفيري) نوع بعض هذه الحالات وأنها مسببة عن خنافس صغيرة تعيش على بعض المواد العضوية المتعفنة وقد وجد هذا النوع من الخنافس في مصر منذ ثلاثة آلاف عام وحتى الآن. وفوق ذلك فقد وجدت ثقوب في التابوت الخشبي تشبه الثقوب الناتجة عن سوس الخشب وأخيراً وجدت العناكب التي تركت خلفها شبكات وأنسجة كبيرة.

وجدت الأزهار في قبر توت عنخ أمون كما هو الحال في قبور الفراعنة الآخرين وكانت عبارة عن نباتات غريبة فمثلاً كان هنالك الكرفس البري بأوراقه الملفوفة بشكل أكاليل وقد وجدت مثل هذه الأكاليل في قبور أمنحوتب الثالث والمهندس المعماري (تشا) فضلاً عن قبر لشخص مجهول في طيبة من عهد الأسرة الثانية والعشرين (950 ق.م) وربما كانت أروع باقة من الأزهار هي التي وجدت في قبر توت عنخ أمون في داخل الناووس فقد كانت عبارة عن مجموعة من الأزهار قطفتها أرملته البالغة الخامسة عشرة من العمر من ضفاف النيل وأرسلتها كتحية أخيرة لحبيبها الراحل. وكانت الجثة نفسها مزينة بنباتات مختلفة فعلى رأس التابوت الثاني وجدت أكاليل من زهر الزيتون وأوراقه وقد وصف الأستاذ (نيوبري) هذه الأكاليل بأنها عبارة عن رمز للتبرئة والغفران الإلهي من الإثم يعتبر المرء بفضلها صالحاً وجديراً بأن ينعم بالخلاص.. وقد أفرد لهذه الأكاليل فصل خاص من كتاب الموتى ومنذ بداية الإمبراطورية الجديدة كانت الأكاليل توضع على التابوت بينما كان الكهنة يرتلون تراتيل دينية خاصة بالتجسيد (وهو اتحاد الألوهية بالناسوتية).

وعلى الكفن الثاني وجد إكليل منظم من الزهر ووجدت باقة من الزهر في الكفن الثالث أيضاً وقد اختلفت درجة قدرة الأزهار على البقاء فبعضها كان يستحيل إلى غبار عند أقل لمسة وبعضها احتفظ بلونه بحيث أمكن تمييزها ومعرفة نوعها بسهولة.

وجدت أزهار الذرة بكثرة في قبور الفراعنة وذلك لأن الأزهار كانت منتشرة على الضفاف في الشريط الضيق الواقع بين نهر النيل والصحراء وقد استطاعت أيضاً أزهار اللوتس وأزهار نباتات البابيروس - وهما رمزا الإمبراطورية -، تزيين القبر والتابوت.

تفاحة الشيطان الغامضة:

هنالك نبتة واحدة لا تنمو في مصر بل وجدت في قبر توت عنخ أمون وفي قبور الفراعنة الآخرين ولهذا فإن أصلها بقي غامضاً وهذه النبتة هي نبتة أليبروح أو اللفاح وهي من الفصيلة الباذنجانية وتظهر في الرسومات على الجدران في قبور العائلة الثامنة عشرة سلال من هذه الفاكهة اللامعة الصفراء اللون الصغيرة الحجم وهنالك اختلاف بالنسبة لما يعنيه وجود هذه الفاكهة في السلال وذلك لأن هذه الفاكهة كانت معروفة بأنها مثيرة للشهوة الجنسية وأن أقرب بلد تنمو فيها هذه الفاكهة هي فلسطين وقد لاحظ العالم هنري (تراسترام) في كتابه التاريخ الطبيعي للكتاب المقدس أن العرب في فلسطين يدعون هذه الفاكهة (تفاح الجن) فإذا أخذت هذه الفاكهة بشكل طبيعي فهي مقوية ولكن إذا أخذت بكثرة وبكميات وافرة تسبب نوعاً من الخبل أو الجنون المؤقت ينتج ردود فعل تشبه ما تنتجه المخدرات المسببة للهلوسة والهذيان.

وقد اعتقد الأستاذ نيوبري أن تفاح الجن الذي وجد في القبور وشوهد في الرسومات مماثل لفاكهة تدعى فاكهة (ديدي) وهي غالباً ما تذكر في كتابات المملكة الحديثة وكانت تستعمل في جزيرة النيل قرب أسوان وهي جزيرة (الفيله - الفنتن) كمادة مخدرة مثل الأفيون أو الحشيشة.

وفي الحقيقة، إنَّه لا الفحوص الكيماوية ولا الفحوص التشريحية لمومياء أخناتون قد ألقت أي ضوء أو ساهمت في زيادة معلوماتنا بعلم الآثار لهذا الموضوع ومن الأفضل من وجهة النظر العلمية البحتة وخدمة لتقدم العلم المختص لو أن قبر توت عنخ أمون قد اكتشف في الخمسينات أو الستينات من هذا القرن فأبحاث الأستاذ هاريسون تظهر الحقيقة بوضوح فمع أنه كان عليه أن يعمل من خلال مومياءات تالفة

جزئياً إلا أن مكتشفاته لها دلالات علمية أعظم مما توصل إليه جميع العلماء الذين اشتغلوا قبله قاطبة.

وعلى كل حال فقد كان لتشريح جثة توت عنخ أمون في معهد التشريح التابع لجامعة القاهرة في 11 تشرين الثاني عام 1925 نتائج مأساوية فقد مات ألفرد لوكاس بعد ذلك التاريخ بقليل بسبب هبوط قلبي مفاجئ وبعد ذلك بقليل مات الأستاذ (ديري) بسبب قصور في دوران الدم.

لقد كانت وفاة عالمين عالجا مومياء الفرعون بشكل سريع سبباً في إثارة الاهتمام وحتى الذعر بين العلماء في جميع أنحاء الكرة الأرضية وكانت وفاتهم الفجائية سبباً في جعل أولئك المتشككين الذين اعتبروا لعنة الفراعنة ضرباً من ضروب الصدف يستيقظون وينتبهون.

obeikandl.com